مجلة مدرسة الإسكندرية

عدد ٧

الحياة الرهبانة في نهاية القرن الرابع الميلاد بمصر (٤)

معجزات البرية

ترجمة: بشارة طرابلسي

الحياة الرهبانية في نهاية القرن الرابع الميلادي بمصر (٤)

معجزات البرِّية *

ترجمة بشارة طرابلسي
beshara_tarabolsi@alexandriaschool.org

مقدمة[١]

يحوي [كتاب] "تاريخ الرهبان" *Historia Monachorum* مادّة مفيدة عن الحياة الاجتماعية في مصر في القرن الرابع، عن الرهبنة ومظاهرها الخارجية في مصر، وعن المنهج الروحي والأخلاقي [الذي اتّبعه] زائرو مصر في تسجيل قصص حيوات الرهبان. ولكنّ [هناك] عنصرًا أكثر هيمنة في هذه المادة [الكتاب]، وهو وجهة النظر التي يقدمها عن واقع آخر، عن عالم يتداخل ويتجاوز هذا العالم، الذي يمتد عبر الصعيد *Thebaid*. أحد العناصر [الموجودة] في سائر الأدب الرهباني المبكّر - والذي ربما يكون غير مألوف للقارئ المعاصر[٢] - هو القصص التي يذكرها عن المعجزات. ويوجد في "تاريخ الرهبان" *Historia Monachorum* عدد من المعجزات أكبر من تلك الموجودة في أي كتاب مماثل. وكما في أي تسجيل أدبي للمعجزات فإنه من المستحيل بالطبع التحقّق من درجة دقّة المعجزة أو الخوارق في مثل هذه القصص؛ ولكن ما من شك من أن أولئك الذين سجّلوها آمنوا بأن اللّه - بطريقة أو بأخرى - تدخّل في الأحداث، ولكن ليس من السهل القول كيف وإلى أي مدى [تمّ هذا]. وعلى الرغم من ذلك فإنه من الممكن، بل ومن المفيد [أيضًا]، أن نفحص هذه المعجزات في شكلها الأدبي [أو الحَرفيّ]، لكي نرى

* Norman Russel, *The Lives of the Desert Fathers 'The Historia Monachorum in Aegypto'* – Introduction by Benedicta Ward SLG, Cisterican Publications CS34, 1981, pp. 38-46.
هذا المقال هو الجزء الأخير من مقدّمة الكتاب للأخت بنديكتا وارد.

[١] العناوين الجانبية من وضع المترجم.

[٢] يجب ألاّ يغيب عن ذهنك أيها القارئ العزيز أن الكاتبة هي راهبة إنجليزية تكتب لمجتمع تغلب عليه المادّية، ولكن بالنسبة للقارئ القبطي، فالحديث عن المعجزات والرؤى أمر معتاد ومقبول. (المترجم).

ما الذي قصدت أن تقوله، ولتكوين فكرة عن أسلوب التعامل مع هذه الأمور في ذهن كاتبي هذه الأحداث، والمشاركين فيها.

المعجزات ... لماذا؟

وبدايةً، يجب التحقّق من نوع المفردات المستخدمة في اليونانية واللاتينية ونترجمها "معجزات"[٣]. فكلمة *miraculum* [اللاتينية] وكلمة *teras* [اليونانية] ليستا هما الأكثر استخدامًا [في الكتاب]. الكلمات المعتادة في "تاريخ الرهبان" *Historia Monachorum* هي: *dunamis, semeion, thaumata* [اليونانية]؛ و*signa, virtus, prodigia* [اللاتينية]، وأحيانًا *thaumaturgia* [اليونانية][٤]. فهذه الأحداث لا يُنظر إليها بوصفها *mirabilia* [عجائب]، كأشياء يُتعجَّب منها لغرابتها، بوصفها متناقضة مع دورة الطبيعة. إنها علامات، علامات على قدرة الله. بل أكثر من هذا، إنها علامات على أن الله يعمل الآن بقوة مثلما فعل مع الأنبياء والرسل. إنها تبيّن فضائل الرهبان *virtus*، وتضعهم مباشرة في مصاف الاستعلانات الكتابية لقوة الله.

هذه الأحداث هي علامات على شيء آخر. أولاً، هي علامات تشير للماضي، إلى سلطة الإعلان relevation المؤسَّسة في الكتاب المقدس. يقول الكاتب إن الآباء "أقاموا الموتى، ومشوا على الماء، مثل بطرس". قيل عن [الأب] كوبروس إنه احتمل محنة بالنار من الوثنيين، في مشهد يذكّرنا فورًا بإيليا [النبي] وأنبياء البعل. [الأنبا] أبوللو ورفاقه زارهم ملاك في السجن مثل

---

[٣] لملخَّص ممتاز عن المصطلحات التي تشير إلى "معجزة" في الكتاب المقدس انظر C. Moule, *Miracles*, Appendix 1, London, 1945 ، حيث تتطابق الاستنتاجات مع تلك التي نستخلصها من الوثائق الرهبانية. انظر مقالة بنديكتا وارد: 'Miracles and the Desert Fathers'، في أعمال المؤتمر الدولي الثامن للدراسات الآبائية، أوكسفورد ١٩٧٩.

[٤] تورد الكاتبة هنا المفردات التي استخدمها الكتاب للتعبير عن "المعجزة" في نسختيه اللاتينية واليونانية؛ والكلمات اللاتينية هي: *signa* = علامة؛ *virtus* = فضيلة؛ *prodigia* = معجزات؛ و*mirabilia* = عجائب أو أشياء عظيمة. أمّا الكلمات اليونانية فهي: το τέρας = أعجوبة/معجزة؛ το σημεῖον = علامة/آية/رمز؛ ἡ δύναμις = قوة/مقدرة؛ το θαύμα = أعجوبة معجزة؛ ἡ θαυματουεργία = عمل المعجزات. (شكرًا للأخ وديع الفرنسيسكاني والأستاذ ريمون يوسف لمعاونتهما القيمة في ترجمة هذه الكلمات). المترجم.

القديس بطرس. [القديس] يوحنا الأسيوطي يُدعى باستمرار نبيًّا. لقد وقفت الشمس ثابتة من أجل باترموثيوس [درمتاوس] كما فعلت مع يشوع. لقد تزوّد [الآباء] بالخبز في القفر مثلما حدث مع إيليا عندما لم يستطع الذهاب أبعد [مما وصل إليه]. تلك كانت وسيلة لتأصيل الأحداث. هذه الإشارات هي رابطة مع الماضي المقدس، والذي نُظر إليه بوصفه خطًا متصلاً مع الحاضر.

الشيء الثاني الذي كان الرهبان متيقنين منه، هو أنه وبالرغم من تأكيد الكُتُب المقدّسة على [حقيقة] المعجزات، فإنها ليست محصورة في الماضي السحيق. لقد كان الرهبان [يحيون] في تقليد *tradition* الأنبياء والرسل، وكما تَذْكُر مقدّمة [الكتاب] فإنهم "بيّنوا أنه حتى في هذه الأزمنة يعمل من خلالهم المُخلِّص ما عمله من خلال الأنبياء والرسل". عندما ظهر الشيطان [للأنبا] أبوللو قال له: "ألستَ إيليّا، أو أحد الأنبياء أو الرسل الآخرين؟"، فأجابه الشيخ: "هل كان الله حاضرًا وقتها، والآن غائب في رِحلة؟ إن الله قادر دائمًا على فِعل هذه الأشياء، لأن معه، كل شيء مُستَطاع". الـ*dunamis*، [أي] القوّات، ظهرت الآن في إسرائيل الجديد في البرِّية، وكل ما كان يهمّ الرهبان هو أن المعجزات ينبغي ألاّ تكون غواية [تسبّب] لهم الكبرياء، ولكن يجب النظر إليها على أنها بالكلِّية عمل الله.

بهذا المنظور الكلّي عن عن مجد الله، الحاضر الآن كما وقتئذ، [نتساءل] عن ماهيّة المعجزات، ولماذا سُجِّلت؟ يمكنّا أن نضعها في أربع فئات: هناك معجزات التنبّؤ *clairvoyance*، معجزات الشفاء، أحلام ورؤى معجزيّة، ومعجزات "الطبيعة". كلٌّ من هذه هو "علامة"، ومن المهم تذكُّر هذا عند قراءة أي جزء من نصّ [الكتاب]: السؤال "لماذا؟"، و"لأيّ سبب؟" يهيمن دائمًا على السؤال "كيف؟"، "ما هي تقنية هذا؟"، في عقل [أهل] العالم القديم.

(١) التنبّؤ

لنأخذ معجزات التنبّؤ أولاً: كما قلنا، لقد سُجِّلت أساسًا كنماذج للبصيرة وسابق المعرفة *foreknowledge* العظيمين كما الأنبياء. قيل عن [القديس] يوحنا الأسيوطي إنه كان قادرًا على التنبّؤ بالمستقبل، وبهذا هو من مصاف

الأنبياء، بالمعنى الحرفي والدقيق للنبوّة. كما قيل عنه إنه يستطيع قراءة الأفكار [حرفيًّا: القلوب]، أحد الذين يتبيّنون الواقع، الذين يفهمون الطبيعة البشرية جيّدًا، بشكل يبدو للسامعين معجزيًّا. إن [التنبّؤ] هو عطية من الله، يراها الكاتب كنتيجة، ومكافأة لحياة النُسك. إن الناس، الذين أخبروا الزائرين عن هبات [القديس] يوحنا النبوية، هم أنفسهم كانوا مثله، وبما أنهم كانوا أناسًا حياتهم صالحة، وذوي فضائل، لذا فإنهم يستطيعون أن يميّزوا بشكل صحيح. لقد كان يوحنّا وأولوجيوس قادريْن على قراءة الأفكار ومعرفة تصرّفات تلاميذ[هم]؛ عرف [الأنبا] أبوللو بزيارة الغرباء له قبل وصولهم، وبدا لهم، ولتلاميذه، هذا الأمر معجزيًّا. قيل إن [الأب] ثيون *Theon* يمتلك موهبة التنبّؤ. [القديس] يوحنا الأسيوطي، مَثَله مَثَل رهبان آخرين، كانت [على عاتقه] مهمة صعبة، [وهي] نُصح الإمبراطور بخصوص حَمَلاته العسكرية، ونجاحه [أي القديس] فيها بدا دليلاً على موهبته الخارقة في التنبّؤ، أكثر من مجرّد فطنة وتبصّر. ومن المهم أن نرى ما يحاول الكتاب أن ينقله [إلينا]، وهو أن تلك [الموهبة] لا شأن لها بالتحديق في البلّورة [كمثل السَحَرَة]، ولكنها صورة للفطنة والبصيرة التي رفعتها النعمة إلى درجة رائعة.

(٢) الرؤى والأحلام

ثانيًا، هناك أحلام البرّية. تحتلّ الأحلام مكانة حيويّة في الأدبيّات القديمة، وهي [مكانة] ربما أُعيد اكتشافها اليوم في بعض الطرق المعيّنة للتحليل النفسي. هناك ملاحظتان حول الأحلام الواردة في هذا الكتاب، الأولى هي حذر الرهبان الشديد بخصوص الأحلام، فخطر الخداع وارد بدرجة كبيرة فيما يخص [الأشياء] شديدة الخصوصية، وبالتالي لا يمكن التحقّق منها[٥]. فقد كانوا يرون أن احتمالية كون الأحلام والرؤى نتاج الشياطين، لهي أكثر من أن يكون الله [هو مصدرها]. لذا فإن الرهبان حذرون، والاستعلانات الشخصية كان لا يوثق بها فورًا، وتُختبَر: فلماذا يوهَب رهبان

---

[٥] تقصد الكاتبة هنا أن الأحلام هي شيء شديد الخصوصية، ولذا فإنه من المستحيل التحقّق منها بدقّة، مما قد يعرّض صاحب الحلم، أو من يسمعه لخداع الشياطين. (المترجم).

متواضعون وخطاة رؤىً في نهاية الأمر؟ - بحسب قولهم. فعلى سبيل المثال، رأى [الأب] أور ملكَ الشياطين في حلم، وباسم المسيح طرده؛ وقدّم الشيطان المناولة ليوحنا المتوحّد، الذي عرفه على الفور أنه العدوّ.

و[الملاحظة] الثانية هي أن الأحلام كانت لغتهم الطبيعية في أوقات المِحَن، ونقاط التحوّل، ولحظات التغيّرات الهامة، والتي تتمثّل دراميًّا *dramatized* وتتركّز أثناء النوم. وتوجد في "تاريخ الرهبان" *Historia Monachorum* أمثلة عديدة على هذا: فقد سُجِّل أن [الآباء] أور، وأبوللو، ويوحنا المتوحّد، رأوا في الحلم ملاكًا، أو [سمعوا] صوت الله ينصحهم بالذهاب وخدمة إخوتهم بعد أن توحّدوا لسنوات طوال، وفي حالتين [من الثلاثة]، فمن المثير للانتباه أن ننظر للجانب الآخر من الحلم، وهو ربط [النصيحة] بوعد الله لإبراهيم أن يكون أبًا لكثيرين. إن تحوّل باترموثيوس [درمتاوس] للحياة الرهبانية، هو نموذج تقليدي؛ [فقد كان] حلمًا: فبينما كان نائمًا، أثناء عملية سطو على أحد المنازل، رأى المسيح مارًّا كمثل الملك، وعرض عليه مكانًا في جيشه. كذلك فليمون الزمّار تثبّت تحوّله بواسطة حلم [رأى فيه] منبر المسيح [أي: الدينونة]، حيث رأى أن صلوات أبوللونيوس عنه قد قُبِلت. رأى [الأنبا] أبوللو أخاه بالجسد يشفع فيه، أمام المسيح، بين الرسل، وبهذا سبق فعرف عن نياحته. ولأن الموت كان التغيّر الأهم، التخطّي الهام لحدود الحياة، لذا فإن الملائكة، والقديسين، والشهداء بالأخصّ، كانوا يأتون ويطالبون بالنسّاك لأنفسهم. ومن ناحية أخرى، فإن أحلام باترموثيوس [درمتاوس] الثلاثة، أُعلم فيها بمن هم مساوون له في الفضيلة، وجاء هذا نتيجة جزعه العميق بخصوص نفسه وطريقة حياته. من الممكن إذًا أن تكون هذه الأحلام [أحلامًا] صالحة، وقد يظهر الآباء أنفسهم في رؤى [الآخرين]، كما حدث مع [القديس] يوحنا الأسيوطي الذي ظهر في حلم لامرأة أرادت أن تراه، وجهًا لوجه؛ ويقول روفينوس إن [القديس] شفاها في هذا الحلم، كما وبّخها. هذه القصة رويت من وجهة نظر المرأة، لا [القديس] يوحنا، وهي تُفهَم تمامًا من خلال هذا السياق. لم يكن الأقدمون - في آخر الأمر - أغبياء. أحيانًا يثور الشكّ بخصوص إحدى الرؤى، ومن أهم [الأمثلة لهذا]، أنْ ثار الارتياب في عقول الرهبان الذين قابلوا [القديس]

مكاريوس [السكندري] عند عودته من زيارته لفردوس ينّيس ويمبريس، ويبدو أنهم لم يشكّوا مطلقًا في أنها كانت وهمًا، وعلى أيّة حال، فإنهم لم يتمكّنوا من رؤية أيّة فائدة ستجلبها لهم في حياتهم الرهبانية.

(٣) شفاء الأمراض

ثالثًا، الأشفية. حوادث [الشفاء] المباشِرة قليلة جدًّا في "تاريخ الرهبان" *Historia Monachorum*. هناك بعض الملاحظات العامّة عن أن بعض هؤلاء القديسين أُشتُهروا [بموهبة] الشفاء: [فالقديس] يوحنا الأسيوطي بارك زيتًا ليُمسَح به المرضى؛ اجتذب [الشيخان] إيليّا وأور الجموع [الباحثين عن] الشفاء؛ [الأب] ثيئون كان ينحني خارجًا من نافذة قلاّيته ليبارك المرضى؛ قيل عن [القديسين] أبوللو، ويوحنا المتوحد، ومكاريوس، وآمون، إن الجموع كانت تزورهم طلبًا للشفاء. هذه القصص تبيّن موطن القوة في القديسين المسيحيين *individual Christian holy men*، أولئك الذين ظُنَّ أن لهم تأثيرًا خاصًّا على الله، خالق العالم ورازقه، [هذه الرؤية] هي أحد المظاهر في مصر في القرن الرابع، حيث كان يُنظر للراهب على أنه أيقونة مرئية للمسيح. لقد كانت هرطقة "تصوّر شكل إنساني لله"[٦] *Anthropomorphism* شائعة كفكرة محلّية وسط الفلاّحين، وأولئك الذين رأوا في الأوريجانية تهديدًا، كانوا عادة من الرهبان البسطاء، والذين بحسب مفهومهم [الخاطئ] كان لله وجهٌ بشريّ. وكذلك لم تكن جموع المرضى الباحثين عن الشفاء حِكرًا أو اختراعًا مسيحيًّا. سوف يكون من المستَغرَب عدم وجود قصص عن مرضى محيطين بالنسّاك العظام [وليس العكس]. ولكنّ النظر عن كثب لحوادث الشفاء القليلة في "تاريخ الرهبان" *Historia Monachorum*، يعطينا فكرة مختلفة إلى حدٍ ما عن الراهب، بوصفه صانع عجائب *thaumaturge*،

---

[٦] ظهرت هذه البدعة في نهاية القرن الرابع في مصر، كردّ فعل للتفسير الأوريجاني الرمزي للكتاب المقدس، حيث قام البعض بتفسير الكتاب المقدس حرفيًّا، وتصوّروا أن لله يدًا ووجهًا وأعضاء بشرية. وقد رفضت الكنيسة هذا الفكر، إلاّ أن مصادمات كثيرة حدثت في التجمّعات الرهبانية في نتريا والقلالي والإسقيط، كما حدثت مصادمات بين جماعات من الرهبان والبابا ثيئوفيلوس (٢٣). (راجع: تادرس يعقوب ملطي (القمّص)، "القديس يوحنا الذهبي الفم"، أقوال الآباء وكتاباتهم ٤، د. ت، ص ٦٧-٧١). (المترجم).

عن تلك التي قُدِّمت في بداية النصّ: فعلى سبيل المثال، قيل لـ[القديس] يوحنا الأسيوطي إن أحد الرهبان الزائرين مريض، ويحتاج لمعونته؛ فقال إنه لن يشفيه، وأن المرض مفيد لهذا الراهب، ليعلّمه الاتّضاع والصبر، [التي هي] الفضائل الحقيقية للحياة الرهبانية. [الأب] كوبروس أنكر أي ادّعاء لديه بأنه يشفي، قائلاً إن شفاء الجسد لهو أمر يسير، "حتى أن الأطبّاء يستطيعون فعله". هناك قصة عن فتاة ضُلِّلت بشدّة، لدرجة أنها اعتقدت نفسها حصانًا، في هذه القصّة طبّق [القديس] مكاريوس العلاج النفسي بالانفصال والعُزلة، مع الصلاة والمسح [بالزيت]؛ وهذه القصة ربما أكثر إثارة للاهتمام في نسخة روفينوس، حيث يقول [القديس] مكاريوس إن فكرة كونها حصانًا هي خداع وإسقاط بواسطة أولئك الذين يشتهونها. [حادثة] شفاء أخرى ذُكِرت في البرّية قام بها [الأنبا] آمون: فقد قال إن طفلاً مصابًا بداء الكلب أُحضِر إليه بعد أن عضّه كلب مجنون؛ ويقترح [الأنبا] آمون على مرضاه أن العلاج يكمن في عمل اجتماعي [هو بالأحرى فعل توبة]: "ردّوا للأرملة الثور الذي قتلتموه خفيةً، وستسترجعون طفلكم بصحّة جيدة". لا يجعل آمون هذا [الفعل] سببًا في شفاء الطفل؛ ولكنه يجعله فقط شرطًا يجب أن يتحقق قبل أن يصلي للطفل؛ وهكذا يُعطى الشفاء في سياق اجتماعي، نرى شفاء الطفل جزءًا منه.

(٤) معجزات الطبيعة

لقد كان الناس يستدعون *call upon* قدرة الله في القديس لتعالج ذلك الجزء من الخليقة الإنسانية، والذي كان محتاجًا بسبب المرض. لقد كان [الشفاء] جزءًا من استعادة الطبيعة الإنسانية المُفتداة في المسيح، آدم الجديد، حيث أصبحت البشرية كاملة *perfect* مرّة أخرى [كما] عند الخلق. فكرة الفردوس المُستعاد تستمرّ في النوع الرابع من المعجزات، والتي أدعوها "معجزات الطبيعة". هذه الأعمال المعجزية تتعامل مع مادّة هذا العالم أكثر من الناس. [المعجزة] الأولى، والأكثر جاذبية من هذا النوع هي ارتباط الرهبان القديسين مع الحيوانات. إن العالم الذي قبل الخوارق *supernatural* على أنها من المسلّمات ـ يحتوي "تاريخ الرهبان" *Historia Monachorum* على

الأقل على قصة واحدة عن وجهة نظر الرهبان لعبادة الحيوانات، والتي حُسبت جزءًا من الديانة الوثنية في مصر، قبل زمانهم ـ [هذا العالم] كان معتادًا على رؤية الرجل القديس كبؤرة للقوة التي يمكن لكل الاحتياجات المادّية، أو العقلية، أو الاجتماعية، إحضارها لتوضع في اتّصال مع ما فوق الطبيعة. لقد كان السؤال: أين يمكن أن توجد القوة الإلهية؟ كيف يتقابل معها الإنسان؟ وكيف ستعمل؟ لذا هناك قصص عن كون موضع [مكانة] *locus* القديس في غاية القوة حتى إنها تمتد للحيوانات، [وفي ذلك] عودة بالإنسان لحالة الفردوس، إلى وضع آدم الأوّل، المُستعاد في المسيح، آدم الثاني، والذي تنقّى مرة أخرى [أي الإنسان] بالطاعة، وبالتالي [أصبح] في بيته مع كل الخليقة. هناك قصة عن [الأب] بِس *Bes* يتحدّث فيها برفق إلى فرس النهر، ثم إلى تمساح، يحثهما على أن يكونا في سلام، وألاّ يَخرِبا أراضي البشر. قيل عن [الأب] ثيئون إنه كان يخرج ليلاً إلى البرّية ليسقي الغزلان، والظباء، والحمير الوحشية. [الأنبا] آمون سأل حيّتين أن تحرسا قلاّيته؛ و[الأب] هيللي استخدم تمساحًا كمعدِّية في النيل. أمّا الأكثر جاذبية، فهي قصة [القديس] مكاريوس، والذي أبرأ جراء الضبعة العمياء، وفي المقابل تلقّى جلد خروف، والذي آل لاحقًا إلى ميلانية[٧]. ولكن التأكيد في هذه القصص ليس على الارتباط الوجداني مع الحيوانات، ولكنّه على السلطان الحقيقي، وطاعة البشر والوحوش. لذا تباهى أحد تلاميذ [الأنبا] أبوللو بقتله للثعابين بيديه؛ ومُدِح [الأب] ديديموس لسحقه العقارب بقدميه الحافيتين؛ [الأنبا] آمون استخدم الحيّات كحرّاس، ولكنه أهلك تلك التي هدّدت حياة الآدميين؛ و[الأب] هيللي، بعدما استخدم التمساح كمعدّية عَبْر النيل قرَّر، بشكل يبدو ناكرًا للجميل، أنه من الأفضل أن يموت. إن القديس في [هذه الحوادث] هو مع الخليقة المتجدِّدة، ولكن في النظام الصحيح، حيث الإنسان هو المتسلّط وهو تاج [الخليقة].

---

[7] Lausiac History c. XVIII.

هناك أمثلة أخرى عن عودة آدم للفردوس في هذه القصص. هناك رهبان تغذّوا على طعام الفردوس، وقادهم نور السماء. لقد قيل إن الخبز *holy bread* كان يُمنَح بشكل معجزي للصائمين في البرّية؛ إن التوازي مع إيليّا[٨] تحديدًا هو أمر معتاد [في هذه القصص]. على سبيل المثال، [الأب] باترموثيوس [درمتاوس] كان يُعطَى رغيفًا غامضًا [من السماء]، كل أسبوع، ليأكله؛ وغذّى ملاكٌ، [الأب] أور، لمدة ثلاث سنوات؛ تلقّى [الأنبا] أبوللو خبزًا في عيد القيامة؛ و[الأب] هيللى منحه ملاكٌ، خبزًا وتمرًا. هذه الصورة ارتبطت [بحياة] الفضيلة بشكل لصيق، حتى إنه عندما أهمل راهب حياته [الروحية]، رأى أن خبز الله المعجزي فسد حالاً. هذه صورة حية ملموسة، تتّصل بمبدأ الصوم والتغذّي على كلمة الله، المقدّم للناس في الكتاب المقدس والصلاة. إن النظرية هي أنه كلّما قلّ أكل الإنسان، فهو أكثر قربًا لأن يأكل مثل آدم [في الفردوس]، أو المسيح في البرّية بخبز الله الذي هو كلمة الله.

قيل، بالمِثل، عن النُسَاك إنهم تلقّوا "نورًا" وهم يتأمّلون الله، وهي صورة ربما تكون متأثّرة بالتقليد الأوريجاني، والذي يشكّل جزءًا هامًا من "تاريخ الرهبان" *Historia Monachorum*. في حالة باترموثيوس [درمتاوس]، (والذي ترد عنه "أطول" القصص بشكل متعمَّد من [الأب] كوبروس، والذي يبالغ في هذه القصص ليظهر أن أعماله أقلّ إذا ما قورِنت [بأعمال باترموثيوس])، وقفت الشمس ثابتة حتى وصل وجهته في ضوء النهار، في إشارة إلى يشوع بن نون[٩] والذي وقفت الشمس ثابتة له في المعركة. بالنسبة لباترموثيوس كانت هذه [المعجزة] علامة على صراعه الممتد طول عمره مع شياطين الظلام. قبل كل شيء، تُعتبَر هذه القصص أمثلة على أنواع المجاز الموجودة في هذه النصوص؛ فلا يمكنّا أن نفسر بسهولة الارتباط الوثيق بين الصورة والحقيقة خلال هذه الأدبيات، ولا في شكلها الظاهريّ.

---

[٨] راجع ملوك الأول ١٩: ٣-٩؛ قصة إطعام الملاك لإيليّا أثناء هروبه من وجه إيزابل. ومن المعروف أن إيليّا النبي ويوحنا المعمدان هما من الأمثلة ذات الدلالة الرهبانية في الكتاب المقدس. (المترجم).

[٩] ورد الاسم في النصّ "جدعون"، وهو خطأ غير مقصود، لذا ارتأيت تصويبه. (المترجم).

(٥) معجزات القصاص

أخيرًا، نذكر نوعًا آخر من المعجزات، وهو القضاء *judgments* الذي قيل إنه حلّ بشكل خارق على الخطاة في حق النُسّاك. لقد ناقشنا من قبل [في هذه المقالة] فكرة أن القديس هو بؤرة القوة الروحية والحُكم. يمكننا قول شيئين بخصوص أمثلة القصاص المعجزي في "تاريخ الرهبان" *Historia Monachorum*. أولاً، من الذي يقوم بالربط [بين القصاص والإساءة للرهبان]؟ [إنهم] الملاحِظون، الكاتب، الزائرون، ولكن ليس القديس نفسه. فعلى سبيل المثال، دمّر زلزال بيت قائد الحامية [العسكرية] الذي سجن [الأنبا] أبوللو، ولكن لم يسبق هذا أي تهديد [من القديس له]؛ ولقد كان الرجل نفسه [أي القائد] هو الذي رأى [أن هذه الحادثة] قصاص مرتبِط بمعاملته [القاسية] للمسيحيين. ثانيًا، عادة ما ترتبط هذه التأديبات باهتداء الوثنيين من خلال رؤى، ربما تعطي نوعًا من العلاج بالصدمة *shock-treatment* اللازم [في مثل هذه الحالات] ليضمن الاهتداء. لذا، بقي الوثن الذي رآه [الأنبا] أبوللو ثابتًا، ولم يستطع اللصوص الحركة عندما حاولوا سرقة منزل قديس، ولص [آخر] لم يستطع أن يطهو خضروات سرقها. [ما تريد] أن تقوله هذه القصص هو أن المخالَفات الداخلية، وقوة الفعل، أعاقهما الاتّصال بما هو مقدَّس؛ إنّ كلّ حالة اهتداء تكتمل من خلال خبرة جديدة لما هو مقدّس، وتستعيد الحركة والحياة.

الإحساس بالتعجُّب هو ميزة رئيسية في قصص المعجزات تلك. إن الكاتب يدّعي لنفسه - في تسرُّع - درجة من السذاجة، أكثر تطرُّفًا من تلك التي يتوقّعها في قارئيه، وربما أكبر من تلك الموجودة في من كَتَبَ عنهم. إن ما تظهره هذه القصص هو التعبير عن فكرتين رئيسيتين عُظميين: [الأولى] تحالف القديسين مع قوى السماء، حتى إنهم [يصيرون] مقطَعًا [أو نافذة] *cross-section* تنظر منها السماء؛ و[الثانية] عدم أهمّية أفعال القوة الخارجية والتي [ترِد] عنها لمحات؛ ولنقتبس من كاسيان، إن ما هو أساسي لغايتهم "ليس هو صنع الأعاجيب،

بل نقاوة الحب"[١٠]. إن عمل الراهب ينتج ثمار المحبّة، وهذا هو اهتمام الرهبان ومَن زاروهم. إن لديهم القليل ليقولونه عن خِبرات الصلاة والتي تقف على عتبة النُسك؛ ربما تكون الإشارة الوحيدة التي يعطونها، هي ما يوجد في قصة [الأب] يوسف الذي من بانفيسيس *Panephysis*:

> "وقف الشيخ، وبسط يديه نحو السماء. وصارت أصابعه كمثل عشرة مصابيح، وقال: 'إن شِئتم، يمكنكم أن تتّقدوا بالكلية'."[١١].

[...] إن ما يوصف في هذه النصوص هو الطريقة الأساسية للحياة، والتي عن طريقها يتحوّل الإنسان باستمرار نحو الله، في مكان واحد، ووقت واحد، باقيًا هناك لشيء واحد فقط. هناك قول منسوب [للقديس] باخوميوس يلخّص اهتمامات الرهبان، وعدم اكتراثهم [بالأمور] المثيرة:

> "إذا رأيت إنسانًا طاهرًا ومتّضعًا، فتلك رؤية عظيمة. لأنه ما هو أعظم من هذا المنظر: أن ترى الله غير المرئي، في إنسان مرئي؟"[١٢].

تلك هي "الرؤية" التي قَدُم من أجلها الزائرون إلى مصر، وتلك فقط هي "الرؤية" التي سجّلوها.

---

[10] Cassian, *Conferences* XV 2.
[11] *Sayings of the desert fathers,* Joseph of Panephysis 7.
[12] *Sancti Pachomii Vitae Graecae,* ed. Halkin, *Subsidia Hagiographica* 19, Brussles, 1932, *Vita A*, Cap. 48.